تأمـــلات

في قول الله سبحانه

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾

تأمل فيها

أبو عبد الرحمن

خليل بن عبد الله بن أحمد الحمادي

مقدمة

إِنَّ الحَمْدَ للَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً، أَمَّا بَعْدُ:

أما بعد:

فإنَّ من صفاتِ المؤمنين الصادقين، التي وصفهم الله تعالى بها، أنَّهم يتدبَّرون كتاب ربهم، ويقفون عند آياته التي تأخذ بشغاف القلوب، كما قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [سورة الأنفال: ٢-٤].

ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، دليلٌ على أنهم يُلقون للقرآن السمع، ويحضرون قلوبهم لتدبُّره، فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبّر من أعمال القلوب. ولا بد أن يُبيَّن لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يُذكّروا بما نسوه، أو يُحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقًا إلى كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

والمؤمن كلما وقف مع كتاب ربه، وتدبّر آياته، ازداد بذلك إيمانًا ويقينًا، كما قال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة التوبة: ١٢٤].

وقد وصف الله سبحانه عباده الصالحين بأنهم إذا سمعوا آيات الله لم يتعامَوا عنها، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الفرقان: ٧٣].

ولنا في هذه الصفحات ـ بإذن الله تعالى ـ وقفةٌ مع آية من آيات هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله الله هدايةً للخلائق، فمن استنار بنوره، واقتفى أثره، فهو من المفلحين الناجين في الدنيا والآخرة، كما قال ربنا عز وجل:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [سورة الإسراء: ٩].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الشورى: ٥٢].

فهو النور الذي أنزله الله على عباده، والذي وجب على الخلق أن يتبعوه لينجوا في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ

ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة الأعراف:١٥٧].

وكيف لا يكون كذلك، وهو كلام ربنا وخالقنا سبحانه؟! فهو أحسن الحديث وأصدقه وأبلغه، كما قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الزمر:٢٣].

وفيه أحسن القصص التي قصها الله على عباده ليهديهم بها إلى صراطه المستقيم، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة المائدة:١٥-١٦].

فالنور هو القرآن، يُستضاء به في ظلمات الجهل وعماية الضلالة.

والكتاب المبين يُبين للخلق كل ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم: من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكامه الشرعية والجزائية.

ثم بيّن الله من الذي يهتدي بهذا القرآن، وما السبب الذي من العبد لحصول ذلك، فقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي: من اجتهد في طلب رضى الله، وسعى لتحقيقه، فذلك الذي يهديه الله إلى سبل السلام، التي تُوصله إلى دار السلام، وهي دار الكرامة.

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾: أي من ظلمات الكفر والبدع والمعاصي والجهل والغفلة، إلى نور الإيمان والطاعة والعلم والسنة والذكر، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي إلى الطريق الموصل إلى رضوانه وجنته.

والوقوف مع آيات هذا الكتاب العظيم لا تنقضي عجائبه، ففيه نبأ من قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلَق على كثرة الترداد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

فدعونا نقف مع هذه الآية التي تقف بنا على عظيم قدرة الملك الجبار، وتكشف لنا شيئًا من حكمته وتدبيره، وهي قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة يوسف: ٢١].

وسنقف مع هذه الآية الكريمة في عدة وقفات:

نتأمل في معناها، ثم نستلهم ما تحويه من فوائد وعِبر، ونتبع ذلك بتأملات من بعض القصص القرآني التي تجلّي معانيها، ثم ننتقل إلى ما جاء في سيرة النبي ﷺ مما يوافق دلالتها، ونختم بتأملات من واقع الحياة المعاصرة تُبرز أثرها وصدق معناها.

ونسأل الله تعالى أن يفتح لنا من خزائن علمه، ويمنّ علينا بفهم كتابه، والتدبر في آياته، والعمل بها على بصيرة ونور.

تمهيد

لا شكَّ -أخي الكريم- أنَّ المتأمل في مجريات حياتنا، وما يعترينا من شؤون وأحداث، يمر عليه من المواقف ما يؤمِّل فيها أمرًا، ويرجو أن تقع على ما يحب ويظن، فإذا بتلك الأمور تجري على خلاف ما توقعه وتخيله.

وقد تكون الأسباب كلها مهيَّأة، والظروف ميسَّرة، والنتائج محسومة في ظن الناس، فإذا بالأمر ينقلب فجأةً على غير ما أرادوه، وتتغير المعطيات، ويقع ما لم يكن في الحسبان، وهنا لا يجد المؤمن ملاذًا إلا أن يلهج بتعظيم الله وتسبيحه، وأن يخضع لجلال قدرته ونفوذ مشيئته، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [سورة يس: ٨٢].

فهو سبحانه وتعالى فعّالٌ لما يريد، لا يُردُّ له قضاء، ولا يُعقَّب على حكمه، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ [سورة هود: ١٠٥-١٠٧].

فكل ما أراده جلَّ جلاله، واقتضته حكمته، فعله من غير ممانع ولا معارض، لا يردُّ أمره رادّ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، {إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ}.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾ [سورة البروج: ١٣-١٦].

فلا أحد غير الله يكون فعَّالًا لما يريد على الحقيقة، فإرادة المخلوقين لا تستقل، بل لا بد لها من إعانة، وقد تعترضها الموانع، أما إرادة الله سبحانه فلا تحتاج إلى معين، ولا تقف أمامها الحواجز، ولا يُعجِزها شيء.

وكثيرًا ما يريد الناس شيئًا، ويريد الله شيئًا آخر، فيمضي الله ما أراد، ويغلب على أمره، ويقهر الخلق على حكمه، ويهيئ الأسباب التي يُنفِّذ بها قضاؤه في الأرض، كما قال جل شأنه: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [سورة يوسف: ٢١].

وتأمل – رعاك الله – هذه الآية، وتأمل قصة يوسف عليه السلام من أولها إلى آخرها، تعرف كيف أن الله إذا أراد أمرًا دبّره بلطف خفيّ، وتقدير عجيب، يتقاصر العقل عن إدراكه، ويقف القلب أمامه مدهوشًا من دقة تصريفه، وحكمة إنزاله، فهو سبحانه العليم الحكيم، الذي لا يخفى عليه خافية.

ومن نظر في وقائع الدنيا، وما يجري فيها من انقلابات وتبدلات، علم وتيقن أن الأمر كله لله، وأن قضاء الله غالب لا مرد له، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن ما من أمر يجري في هذا الكون إلا وهو داخل في تدبيره وإرادته، وأن وراء كل حدث ظاهر، حكمة بالغة، وتقدير دقيق.

فطوبى لعبدٍ استنار قلبه بمعرفة ربه، فصار ممن استثناهم الله بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾.

وهنيئًا لمن وفَّقه الله إلى محبته، ومعرفته، والرضا بقضائه، والأنس بما اختاره له، وإن خالف هواه، فكم في قضاء الله من لطائف خفية لا تظهر إلا بعد حين، وكم من تدبير رباني ظنه العبد شرًّا فإذا هو أعظم الخير!

فالحمد لله على حكمته البالغة، وتدبيره الرحيم، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الأحزاب:٣٨].

الوقفة الأولى:

في معنى الآية.

قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [سورة يوسف: ٢١].

قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ﴾ أَصْلُ الغَلَبَة: القُوَّةُ وَالقَهْرُ، يُقَالُ: غَلَبَ الرَّجُلُ غَلْبًا وَغَلَبًا وَغَلَبَةً فَهُوَ غَالِبٌ أَيْ قَهَرَ.

قَالَ الْحَلِيمِيُّ: (الْغَالِبُ): هُوَ الْبَالِغُ مُرَادَهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَبُّوا أَمْ كَرِهُوا، وَهَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ، وَأَنَّهُ لَا يُقْهَرُ وَلَا يُخْدَعُ. اهـ (١)

قوله سبحانه ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾

فِي عود هاء الضمير في ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ وجْهانِ:

الأَوَّلُ: أنَّ الضمير يعودُ إلى الله تعالى، أي: واللهُ غالِبٌ على أمرِه سبحانَه، يفعَلُ ما يشاءُ، فلا يُرَدُّ أمرُه ولا يُمانَعُ، ولا يُدفع قضاؤه، ولا يُنازَعُ فيما أرادَه، ومِنْ ذلك ما يتعلَّقُ بيوسُفَ عليه السَّلامُ مِنَ الأمورِ الَّتي أرادَها اللَّهُ سبحانَه في شأنِه، وكذا في غيرها من الأمور.

وبهذا قال ابن عباس، واختاره القرطبي، وأبو حيان، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، والسعدي.

---

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (١/ ١١٤).

والثّاني: أنَّ الضمير يعودُ إلى يوسفَ عليه السَّلامُ، أي: اللهُ غالبٌ على أمر يوسُفَ، يدَبِّرُه ويَحوطُه، ولا يكِلُه إلى غيره، حتى لا يصِلَ إليه كيدُ كائدٍ. وبه قال مقاتل واختاره ابن جرير.

والوجه الأول أرجح وأعم، وفي كلا الحالين يعود الأمر إلى أنَّ الله غالب على أمره، سواء فيما أراده وقدره في أمر يوسف؛ أو في كل ما قدره ربنا سبحانه وتعالى وأراده، فأمره نافذٌ فإذا أراد شيئا فلا يُرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه.

وقد قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الرعد:٤١].

أي: والله – تعالى – يحكم ما يشاء أن يحكم به في خلقه ، لا راد لحكمه ، ولا دافع لقضائه ، ولا يتعقب أحد ما حكم به بتغيير أو تبديل ، وقد حكم – سبحانه – بعزة الإسلام ، وعلو شأنه وشأن أتباعه على سائر الأمم والأديان، فأمره ماضٍ وحكمه نافذ سبحانه.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة هود:١٠٧].

وقوله سبحانه: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة البروج:١٦].

أي: مهما أراد فعله، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة يس: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة مريم: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة النحل: ٤٠].

أي: يأمر بالشيء أمرًا واحدًا، لا يحتاج إلى تكرار:

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا ... يَقُولُ لَهُ: "كُنْ"، قَوْلَةً فَيَكُونُ

أَيْ: أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْكِيدٍ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يُمَانَعُ وَلَا يُخَالَفُ، لِأَنَّهُ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الْعَظِيمُ، الَّذِي قَهَرَ سُلْطَانُهُ وَجَبَرُوتُهُ وَعِزَّتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، فَلاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

فكل هذه الأدلة وغيرها أكثر تدلُّ على أنَّ القول الأول أرجح فالآية على عمومها في كل ما أراده الله وقضاه.

فأمْرُ اللَّهِ هو ما قَدَّرَهُ وأرادَهُ، فَمَن سعى إلى عَمَلٍ يُخالِفُ ما أرادَهُ اللَّهُ فَحالُهُ كَحالِ المُنازِعِ عَلى أنْ يُحَقِّقَ الأمْرَ الَّذِي أرادَهُ ويَمْنَعَ حُصُولَ مُرادِ اللَّهِ - تَعالى - ولا يَكُونُ إلّا ما أرادَهُ اللَّهُ - تَعالى - فَشَأْنُ اللَّهِ - تَعالى - كَحالِ الغالِبِ لِمُنازِعِهِ. والمَعْنى واللَّهُ مُتَمِّمٌ ما أراده وقَدَّرَهُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلمونَ أنَّ اللهَ غالِبٌ على أمرِه، وأنَّ تدبيرَ الأمورِ بيَدِه، ولا يَدرُونَ حِكمَتَه في خَلقِه، وتلَطُّفَه لِما أراد سُبحانَه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ هم أهْلُ الاِضْطِرابِ من المشركين وممَنْ لا يؤمن بالقدر؛ فإنَّهم لا يعلمون أَنَّ قدرة الله غالبةٌ ومشيئته نافذةٌ، وما ذاك إلا لِعَدَمِ التَّأمُّلِ بأَنَّهُ تَعالى عالٍ عَلى كُلِّ أمْرٍ، وأنَّ الحُكْمَ لَهُ وحْدَهُ سبحانه.

الوقفة الثانية:

ما يستفاد من الآية.

قبل أن ننتقل إلى ما تحمله هذه الآية الكريمة من فوائد ومعانٍ عظيمة، ينبغي أن نُهيّئ القلوب لتلقي الهداية الكامنة في كلماتها،

فإن كلام الله ليس لمجرد التلاوة، بل هو زادٌ للعقول، وشفاءٌ للقلوب، ونورٌ للسائرين.

ومن رحمة الله بعباده أن جعل في كل آية من كتابه كنوزًا من العلم، وسبلاً من الهداية،

فإذا أقبل العبد عليها بتدبر وخشوع، فتح الله له من أبواب الفهم ما يُقرّب قلبه، ويصلح شأنه.

فلنقف الآن مع جملةٍ من الفوائد الزكية التي تهدينا إليها هذه الآية المباركة:

١. فيه إثبات صفة الغَلَبة لله عز وجل، وهي صِفةٌ ذاتيَّةٌ ثابتةٌ للهِ عزَّ وجلَّ بالكِتابِ والسُّنَّةِ؛ فمن الكتاب الآية المذكورة، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة المجادلة: ٢١].

ومن السنة ما رواه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلاَ شَيْءَ بَعْدَهُ».

ومِن أهل العلم من أثبت اسم الغالب لله كالبيهقي في الأسماء والصفات، والصحيح أنَّه صفة من صفات الله، فالغالب من معاني العزيز، والعزة بمعنى الغلبة وهو أيضًا من معاني اسم الله القاهر، فالقاهر سبحانه هو الغالِب على جميع الخلائق على المعنى العام، الذي يعلو في قهره وقوته فلا غالب ولا منازع له، بل كل شيء تحت قهره وسلطانه.

٢. أن الله سبحانه إذا أراد شيئًا فلا يمانع ولا يُعاقَب، بل هو الغالب على أمره، ينفذه كيف شاء، ومتى شاء، وبما شاء، فلا يرد قضاءه أحدٌ، ولا يعجز عن شيء، مهما اجتمع الخلق على منعه.

٣. وجوب الإيمان بقدر الله وقضائه، والرضا به، والتسليم له، فهذه الآية أصل في هذا الباب، تُثبّت القلوب على التوحيد، وتربّي المؤمن على الاطمئنان لحكم الله ولو خالف مراده.

وقد نقل الإمام أحمد رحمه الله إجماع السلف على هذا المعنى، **فقال:** أجمع تِسعونَ رَجُلاً من التابعين وأئمَّةِ المُسلِمين وأئمَّةِ السَّلَفِ وفُقَهاءِ الأمصارِ على أنَّ السُّنَّةَ التي تُوفِّيَ عنها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أوَّلُها الرِّضا بقضاءِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، والتسليمُ لأمرِه، والصَّبرُ على حُكمِه، والأخذُ بما أمرَ اللهُ به، والانتهاءُ عمَّا نهى اللهُ عنه، والإيمانُ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه. اهـ[1]

---

(١) ((طبقات الحنابلة)) لابن أبي يعلى (١/ ١٣٠).

٤. أن أقدار الله تابعة لحكمته، فليست جاريةً عبثًا، ولا واقعةً بلا ميزان، بل ما يجري في هذا الكون فبحكمةٍ بالغة، وعلمٍ محيط، وقدرةٍ لا تُحدّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [سورة النساء: ١١].

٥. أن المراد بـ "الأمر" في الآية هو قضاء الله وقدره، فهو الأمر الكوني القدري، الذي لا مرد له، وهو غير الأمر الشرعي الذي قد يُطاع أو يُعصى.

٦. أن لله عز وجل تدابير خفيّة، ولطائف دقيقة في إنفاذ قضائه، تخفى على كثير من الناس، ولذا يُبتلى العبد بأقدار لا يفهم حكمتها، ويظنها شرًّا، ثم يكشف الله له بعد حين أنها الخير بعينه، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١٦].

وقد يُطلع الله بعض عباده على شيء من تلك الحكم إجمالًا، وأما تفصيلها فلا يعلمه إلا هو سبحانه.

٧. أن أكثر الناس يجهلون هذا المعنى العظيم: أن الله غالب على أمره، ولهذا تراهم يظنون أن الأمور تمضي بتخطيطهم، أو أنهم قادرون على تغيير سنن الله، أو أن لهم من الأمر شيئًا، وهذا من الجهل العظيم، والغرور بالنفس، والاغترار بالحول والقوة.

ومن هؤلاء الكفار والمشركون والمبتدعة المنكرون للقدر، أو المكذبون لحكمة الله في قضائه، نسأل الله السلامة والعافية.

٨. أن وعد الله لا يُخلف، وإن تأخر في نظر الناس، فالغلبة لأمره محققة، ولو بدا لبعض الناس أن الأمور تسير في عكس الاتجاه، فالله غالب، وإن غلب الناسُ في الظاهر، فهو غالب على الحقيقة، وما تأخره إلا لحكمة، وما ستره إلا لتمام التدبير.

٩. أن الله يُمهِّد لأقداره بأسباب قد تبدو في ظاهرها اعتيادية، لكنها في حقيقتها غلبة إلهية قاهرة؛ فتأمل كيف كان إخوة يوسف هم الذين ألقوه في الجب، ثم التقطه السيارة، ثم بيع عبدًا، ثم سكن قصر العزيز، وكل ذلك تمهيد لأمر الله، وغلبة لحكمته، بلا معجزة ظاهرة، لكن بتدبير رباني عجيب.

١٠. أن من أعظم أسباب السعادة والطمأنينة: الإيمان بأن الله غالب على أمره، فالمؤمن الذي يوقن أن تدبير الله هو النافذ، لا يجزع عند البلاء، ولا يطغى عند العطاء، بل يعلم أن خلف كل قضاء حكمةً ورحمة، وأن الأمور لا تجري خبط عشواء.

١١. أن الله إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه وإن كرهه الخلق أو خالفوه، فالناس قد يعارضون أمرًا أراده الله، أو يسعون لمنعه، لكنهم في الحقيقة يُساقون -بعلمهم أو جهلهم- لتنفيذ قدره، كما وقع من إخوة يوسف: أرادوا إذلاله، فإذا بهم يُمهِّدون لطريق تمكينه.

١٢. أن الله سبحانه يُنفذ قدره دون أن يشعر به المخالفون له، ولا يستطيعون دفعه، فـ"غالب على أمره" تشمل الغلبة في السر كما في العلن، وفي الأسباب الدقيقة كما في المعجزات الواضحة، فهو يدبر أمره بحكمة لا تُدرك، ولا تُقاوَم.

١٣. أن العبد لا ينبغي له أن يحكم على المصائر والأقدار من ظاهر الحال فقط، فالعبرة بخاتمة التدبير لا بأوله، والموازين الإلهية تختلف عن موازين البشر، فكم من قدرٍ مكروه في أوله محبوب في عاقبته، وكم من تدبير بشري تبين أنه في خدمة قدر الله.

١٤. أن علم أكثر الناس قاصر عن إدراك كمال تدبير الله، ولهذا قال في ختام الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، فجهلهم هو سبب اضطرابهم وجزعهم، ولو علموا الغلبة الإلهية وسعة الحكمة الربانية، لرضوا وسكنوا.

١٥. أن الله تعالى يحب من عبده التسليم المطلق لحكمه وقضائه، إذ علم أن أكثر الناس لا يعلمون، فعليك أنت أن تكون من القليل الذين يعلمون، ويفهمون، ويذعنون.

١٦. أن من معاني الغلبة في الآية: الغلبة في نهاية الأمور لا في بدايتها فقط، وقد يكون للخلق غلبةٌ وقتية، أو سلطة ظاهرة، لكنها لا تدوم، لأن الغلبة المطلقة إنما هي لله سبحانه، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [سورة المائدة:٥٦].

الوقفة الثالثة:

تأملات في بعض قصص القرآن على ما دلت عليه الآية.

إنَّ من تدبر كتاب الله عز وجل، وتفكر في آياته المحكمة، يجد فيه من القصص العظيمة ما يجلِّي له بوضوح أن الله سبحانه غالبٌ على أمره، وأنه سبحانه يمضي قضاءه وقدره على من شاء، وكيف شاء، لا يرد أمره رادٌّ، ولا يدفع قضاءه دافع.

فما شاء الله كان، وإن كرهه الخلق، وما لم يشأ لم يكن، وإن أحبوه ورغبوا فيه.

وتأملُ قصصِ القرآن يرينا كيف تتجلى حكمة الله في قضائه، وتدبيره العجيب في إمضاء أمره، وكيف يسوق الأسباب، ويقدر الأقدار، ويغير مجريات الأحداث، حتى يتم ما أراده سبحانه، ولو خالف ذلك رغبة الناس أو كيد أعدائه.

فترى ألطافه تتنزل، وتدابيره تعمل في الخفاء، حتى ينكشف للمؤمن عاقبة الأمر، ويتبين له أن الله بالغ أمره، وقد جعل لكل شيء قدرًا.

وكم في كتاب الله من قصص تبين هذا المعنى الجليل!

ولو وقف العبد متدبرًا عند تلك الآيات، لامتلأ قلبه تعظيمًا لربه، وخضوعًا لحكمه، وثقةً بوعده، ولأيقن أنَّ الله على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو القاهر فوق عباده، القادر على كل شيء، لا يُعجِزه تدبير، ولا يُغلب في أمر، ولا يُسأل عما يفعل، وهو الحكيم الخبير.

وقد صدق ربنا سبحانه وتعالى إذ قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الزمر:٦٧].

فيا سبحان الله! أيُّ عظمة أعظم من هذه؟! أرضه كلها بيده، وسماواته مطويات بيمينه، وهو الغني عن خلقه، المالك لكل شيء، المتصرف في كل شيء، القاهر فوق كل شيء. فمن لم يُعظِّم هذا الرب العظيم، ولم يُفرده بالعبادة والطاعة والتوكل، فقد جهل قدره، وأسرف على نفسه ظلمًا وجهلاً.

فتعالوا نَعِش مع بعض تلك القصص التي ذكرها الله في كتابه، لا لمجرد الحكاية، ولكن لنعتبر ونتعظ، وليزداد إيماننا وثقتنا بربنا، فنوقن أن ما من شيء يقع في هذه الحياة إلا بأمره وحكمته، وأنه لا غالب لأمر الله.

قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [سورة يوسف:١١١].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة التوبة:١٢٤-١٢٥].

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة هود: ١٢٠].

وكل قصة من هذه القصص العظيمة تحمل بين طياتها تجليات لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾.

فسنقف معها متأملين كيف نفذ قدر الله، وظهر قهره، وتجلّت حكمته، وأُبطل كيد من أراد غير ما أراد الله، ليوقن العبد أن التدبير كلَّه لله، والحكم لله، والأمر لله، وأنه لا غالب لأمره ولا معقب لحكمه، سبحانه.

وسنتأمل في هذه الوقفة في عدة قصص ومواقف، نبدأها من قصص القرآن، ثم من السنة النبوية، ثم من الواقع القريب والبعيد، ثم نختم بتأمل في حياتنا نحن. وهذه أبرز المحطات:

أولًا: تأملات من القصص القرآني:

١. تأملات في قصة يوسف عليه السلام.

٢. تأملات في قصة موسى عليه السلام.

٣. تأملات في قصة إبراهيم عليه السلام.

٤. تأملات في قصة مريم عليها السلام.

٥. تأملات في قصة أصحاب الكهف.

٦. تأملات في قصة أصحاب الأخدود.

ثانيًا: تأملات من السيرة النبوية:

١. تأملات في هجرة النبي ﷺ.

٢. تأملات في يوم بدر.

٣. تأملات في يوم الخندق.

٤. تأملات في صلح الحديبية.

٥. تأملات في حادثة الإفك.

ثالثًا: تأملات من واقع العلماء والدعاة:

١. تأملات في محنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

٢. تأملات في قصة خروج أهل السنة من دماج.

رابعًا: تأمل في حياتك أنت

وكيف رأيتَ أن الله غالب على أمره في تفاصيل حياتك أنت؟

فإلى أولى هذه الوقفات، نستفتحها بتأملات في قصة يوسف عليه السلام، فهي أصل الآية ومبدأ الحديث، ومنها انطلقت تلك الحقيقة العظيمة: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.

إنها القصة التي تجلت فيها غلبة الله في كل تفاصيلها؛ من الرؤيا إلى الجب، ومن الرق إلى السجن، ومن الظلم إلى التمكين، ومن التفرقة إلى اللقاء، كل ذلك تحت تدبير العزيز الحكيم.

ونسأل الله تعالى أن يفتح لنا في هذا المقام فتوح العارفين، وأن يرزقنا بصيرةً في تدبر آياته، وثقةً بوعده، ورضًا بحكمه، وإيمانًا راسخًا بأن الله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

تأملات في قصة يوسف.

تأمل – رعاك الله – هذه الآية العظيمة في سورة يوسف:

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

آيةٌ لو تدبّرها العاقل بعين قلبه،

وسار في أنوارها ببصيرته،

لأيقن أن فوق تدبير الخلق تدبيرًا،

وفوق مكائد البشر قدرةً لا تُغالب،

وإرادة لا تُدافع، وحكمة لا تُدركها الأبصار.

تأمل في قصة يوسف عليه السلام

كيف ابتدأت القصة بنُصح الوالد الحاني،

يعقوب عليه السلام، لولده الصالح يوسف فقال:

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾.

نصيحة محبٍ خبير، يخشى عليه من شر الحسد وفتنة القلوب.

استجاب لوصية والده، فلم يقصَّ رؤياه، لكنهم كادوا!

ما سمعوا منه، ولكن سمعوا عنه، فوصلهم المقصود،

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾

فتحركت في صدورهم نار الحسد، ووقع ما خشي منه يعقوب،

وجرى القضاء، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.

فلا حذر يدفع قدرًا، ولا كيد يغلب تدبير الرحمن!

أرادوا أن يُخرجوه من قلب أبيه، أن يخلو لهم وجهه،

وأن تُمحى ذكرى يوسف من الذاكرة،

لكن القلوب بيد الله، فما نسيه يعقوب لحظة،

وما نطق يومًا إلا: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾

هو في سويداء قلبه، وفي خفايا الحنين،

ولمّا غاب أخوه قال:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾

يوسف حاضر في قلبه، وإن غاب عن عينيه سنين طويلة،

لأن القلب مأوى من أحبَّ، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾...

ألقوه في غيابة الجبِّ، أرادوه في الظلمات،

فرفعه الله إلى مقامات الأنوار،

أرادوا به الخُذلان، فجعل الله له السلطان،

وقال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [سورة يوسف: ٥٤].

من قاع الجبِّ إلى كراسي المُلك!

ومن عبد يُباع بثمن بخس، إلى سيِّد يُطاع،

لأن الله ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾!

باعوه بيع العبيد، أرادوا إهانته،

فأكرمه العزيز وقال لامرأته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾

فسكن القصر، وهو الغريب، وهو المظلوم،

لكن الله إذا أراد أن يرفع عبدًا لم يعبأ برأي البشر أجمعين.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾!

تأمل ...

امرأة العزيز وقد أغلقت الأبواب،

وأعدَّت المكان والزمان،

لكنها نسيت أنَّ فوقها ربًا لا يغفل،

وأن وراء الحُجُب سميعًا بصيرًا،

وإذا بها تُفاجَأ بزوجها عند الباب!

﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِ﴾ [سورة يوسف: ٢٥].

وسرُّها ينكشف، وفضيحتها تُذاع!

﴿۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [سورة يوسف: ٣٠].

لأن الله ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾!

أرادت أن تُدين يوسف بالكذب،

فشهد شاهدٌ من أهلها، فظهر الحق،

وقال لها العزيز: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

والحق لا يضيع إذا تولّاه الله، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ ...

سُجن يوسف ظلمًا، فسعى في خلاص نفسه،

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾

ولكن الله أراد له مقامًا أعظم، فرأى الملك الرؤيا،

فطلبه بنفسه، وقال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾

خرج يوسف لا كسجين، بل حُجّةٌ،

وسراجٌ يُهتدى به، وأمينٌ يُركَن إليه في المهمّات،

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ ...

وتأمل...

في الساقي، كيف حاول إخفاء أن الرؤيا للملك،

فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾.

ولم يقل أفتِ الملك،

وقال: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾

فتكتم، وأخفى، فماذا كان؟

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾

وتأمل...

كيف ساق الله يوسف من أرض الشام إلى أرض مصر،

ليكون سببًا في نجاة أهلها، وحفظ أقواتها،

وإنقاذها من المجاعة، وإنقاذها من الهلاك

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾...

كان يوسفُ عليه السلام سيِّدَ الغد،

لأن اللهَ إذا أراد لعبدٍ رفعةً، بسط له القَبولَ في الأرض،

وألقى له في القلوب مهابةً، وفي الأنظار خضوعًا،

فيراه الناس بعين التعظيم وإن جهلوا أصله،

ويهابونه وإن لم يعرفوا قدره؛

فالله هو الذي يرفع من يشاء، ويعزُّ من يشاء،

ويجعل له من كل ضيقٍ مخرجًا، ومن كل محنةٍ رفعةً ومقامًا.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾...

وتأمل...

كيف كان من قدر الله أن يدخل بنو إسرائيل مصر،

ويستوطنوها، لتبدأ دورة جديدة في كتاب البشرية،

تُولد فيها قصة فرعون، ويُبعث موسى،

وتبدأ رحلات النبوة والفداء والخلاص.

كل ذلك بتدبير رب العزة، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ ...

فاعلم – رحمني الله وإياك – أن الله إذا أراد أمرًا،

فلن يردَّه شيء، وإذا أحب عبدًا، سخر له كل شيء،

وإذا كتب الخير لأحد، لم يمنعه عنه كيد الكائدين، ولا مكر الماكرين.

فإذا ضاقت بك السبل، واستوحشت دروب الحياة، فتذكر:

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

تأملات في قصة موسى عليه السلام

تأمل ...

كيف بدأ قدر موسى عليه السلام في زمانٍ اشتد فيه الظلم،

وطغى فرعون، وأصدر قراره الجائر؛

بقتل كل مولودٍ ذكرٍ من بني إسرائيل!

ذُبِح الأبناء، وعمَّ الخوف،

لكن الله أراد الحياة لمولودٍ واحد،

فجاء موسى في عام الذبح، لا في عام العفو،

وفي عزِّ الخطر، وُلِد النور!

فإذا بأمّه يلهمها الله بفعل ما هو خيرٌ له ولها:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [سورة القصص:٧].

فإذا خفت عليه من فرعون وجنوده.

﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [سورة القصص:٧].

فمن الذي سيمنع سيف فرعون؟

وما الذي يردُّ جيوشه؟

إنَّه الله... اللطيف الخبير!

فقذفته في اليمِّ،

لا لأن البحر أحنُّ من صدرها،

بل لأن قلبها اطمأن بوعد الله:

﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة القصص:٧].

وتأمل كيف ساقت العناية الإلهية موسى الصغير ليكبر في حَجر عدوه!

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [سورة القصص:٨].

يربُّون عدوّهم، يهيئون له المسكن والمطعم،

ظانّين أنهم يحسنون صنعًا،

لكن الله أراد غير ذلك، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾!

وتأمل...

لا يرضع من أي مرضعة،

يبكيه الجوع وتدفعه الأقدار،

حتى يُؤتى بأمه، وهي في زيِّ المرضعات،

فيأخذ ثديها مباشرة، ويطمئن قلبها.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة القصص:١٣].

فصارت أمّه مرضعًا رسميًا له بأجر، فمن ذا الذي دبّر هذا؟

إنه اللطيف ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ ...

وتأمل...

حين شبّ موسى، وكان في ريعان شبابه،

ودخل المدينة على حين غفلة،

فوجد رجلين يقتتلان، فوكز القبطي فقُتِل.

وكان ذلك سبب خروجه من مصر مطاردًا، خائفًا يترقّب!

وقد خرج موسى وليس معه مال ولا متاع،

لا يحمل زادًا ولا دليلاً،

لكن من خرج بأمر الله، حفظه الله.

ومن سار لله، يُسِّرت له الطرق ولو كانت موحشة.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾

دخل مدين غريبًا، فوجد امرأتين،

فتأملَ حياءهما وضعفهما، وتأمل نخوته ومروءته!

فسقى لهما، ثم تولّى إلى الظل، لا يطلب إلا وجه الله،

وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾

فلم تكن سوى لحظات... وإذا به يُنادَى:

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ [سورة القصص:٢٧].

من غريبٍ طريدٍ فقيرٍ، إلى زوجٍ كريمٍ مؤتمنٍ.

فسبحان من بيده خزائن كل شيء!

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾

وتأمل...

حين قضى الأجل وسار بأهله، وإذا به يضيع الطريق،

في ليلة بردٍ ووحشةٍ، لكن الضياع كان طريق اللقاء،

فقد آن له أن يُكلَّم!

وآن له أن يرفع،

وجاء الوقت لاستعماله فيما هيأه الله لأجله

﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾

فلما جاء الوقت الموعود

﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [سورة القصص: ٣٠].

في تلك الليلة المباركة...

أُعْلِمَ موسى عليه السلام بالنبوة،

وحُمِّل أمانة الرسالة، وكُلِّف بالبلاغ،

وأُمر بمواجهة أعتى طاغيةٍ على وجه الأرض،

ذاك الذي كان سببًا في هروبه، وخروجه من أرض مصر!

لكن...

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾

خرج موسى يومًا فارًّا، طريدًا، خائفًا يترقَّب،

لكنَّه في الحقيقة كان يسير نحو التمكين،

يُهَيَّأُ لأمرٍ عظيم، وتُصنع له شخصية النبيِّ المصلح

ولكن... خارج قصور الملوك،

فلن يكون موسى أهلاً لحمل الرسالة،

وهو يتربى مدللاً في بيت الطغيان.

إنه تدبير ملك الملوك وعلام الغيوب:

أن التمكين يسبقه التمحيص،

والرسالة لا يحملها إلا من صهرته الشدائد.

وتأمل...

حين وقف موسى أمام فرعون،

لم يكن معه جيش، ولا سلاح، ولا دعم، لكن كان معه الله.

وكانت الكلمة التي لا يثبت معها الخوف:

﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾

هذه الكلمة وحدها، حركت البحر،

وفلقته إلى يابسة، ومهّدت الطريق،

وأنجت أمة، وأغرقت جبّارًا!

وتأمل كيف ضرب بعصاه البحر فانفلق،

ثم ضرب بها الحجر فانفجرت منه المياه،

ثم ألقاها فصارت حية تسعى.

أي سر في هذه العصا؟!

إنها عظمة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾

فإذا أراد الله أن يُجري العجائب على يد عبدٍ، أجرى!

أفلا ترى – يا رعاك الله –

كيف نسج الله على موسى أثواب الرحمة من كل جانب؟

وكيف كانت المحنةُ عين المنحة، وكانت الظلمةُ مدخل النور؟

كل هذا يجري تحت عين الله، وبأمره.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾

فإذا ضاقت بك الأسباب، وتكالبت عليك الخطوب،

فتذكَّر موسى، وتذكَّر كيف قال ربه له:

﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾

وتذكَّر أنه قال في أعظم ساعة من الخوف:

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾

فقلها بصدق، وامضِ في دربك...

وسيعلم قلبك يومًا أن ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾

وستعلم أن الله

﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾

تأملات في قصة إبراهيم

تأمل...

في فتىً صغير، لا ظهر له من الخلق، ولا أنصار، ولا قبيلة تذود عنه...

وإذا سُئل: من أبوك؟ قال: آزر صانع الأصنام!

ومع ذلك كان قلبه موصولًا بالله، يرى الشمس تأفل، فيرفضها،

ويرى القمر يغيب، فيعرض عنه،

حتى قالها كلمة لا رجعة فيها:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة الأنعام:٧٩].

ذلك الفتى لم ينتظر أن يكبر، أو أن يكون له سلطان أو جاه،

بل حطَّم الأصنام بيده، وترك الفأس على كبيرهم،

وقال لقومه: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

فغضب عليه القوم، وأجمعوا كيدهم،

وبنوا له نارًا عظيمة، ثم قذفوه فيها قذفًا!

لكن... ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾

فإذا بالنار – وهي النار – تخضع لأمر الله،

وتُخيَّب ظنَّ الكائدين،

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة الأنبياء: ٦٩].

تأمل...

كيف خرج مهاجرًا في الأرض، لا يدري أين يمضي،

كلما ناداه ربه قال: لبيك!

حتى إذا قيل له:

﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٣١].

فصار إمامًا للموحدين،

وخلَّد الله ذكره في كل صلاة من صلواتنا،

وصار اسمه مقرونًا بمحمد صلى الله عليهما وسلم في التشهد.

تأمل...

كيف خرج الخليل بابنه الوحيد بأمر الله،

إلى صحراء قاحلة، لا ماء فيها ولا بشر،

تركه هناك، في وادٍ غير ذي زرع،

وهو الواثق بربه، المسلِّم لحكمه.

فتناديه أم إسماعيل خلفه:

لِمَن تتركنا هنا؟

فمضى بخطواتٍ مطمئنة، لا يلتفت إليها،

فقالت: آلله أمرك بهذا؟

قال: نعم.

قالت بنفسٍ مؤمنة: إذًا لن يُضَيِّعَنا.

فلم يُضيعها، فالله غالبٌ على أمره...

ذلك الوادي المقفر،

تحوَّل بأمر الله إلى مهوى أفئدة الناس،

ومقام الطائفين والركَّع السجود،

منطلق أعظم رسالة عرفها التاريخ،

ومولد خاتم الأنبياء.

ومن تلك اللحظة، بدأت قصة البناء:

تفجرت زمزم من تحت قدم رضيع،

ونُودي بالحج،

نداءٌ في صحراء،

ترددده الأجيال وتلبيه الملايين كل عام.

فانظر كيف أن الطاعة في الخفاء،

والصبر في البلاء،

والثقة في القضاء،

هي التي تصنع التاريخ، وترفع الذِّكر،

وتُظهر أثر "غلبة الله على أمره".

تأمل...

كيف ابتلاه الله بذبح ابنه إسماعيل، بعد أن أُعطيه على كِبَر،

ثم رأى في المنام أنه يذبحه،

فلما همَّ بأمر الله،

ونفَّذ مراد الله بيدٍ ثابتة، وقلبٍ ساكن،

ناداه المنادي من السماء:

﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥)﴾

ففداه بذبح عظيم،

وصار كل من حج أو ضحَّى... يُحيي هذا الموقف كل عام!

بعد أن خُشيَ أن يبقى حزينًا فاقدًا لابنه،

فإذا به يُخلَّد في شعائر المؤمنين،

لأن الله غالب على أمره!

تأمل...

كيف أراد قومه أن يكسروا إيمانه،

فكسر هو أصنامهم.

أرادوا إحراقه،

فأحرق الله كيدهم.

أرادوا إبعاده،

فقرَّبه الله.

أرادوا إذلاله،

فخلَّده الله.

خرج وحده في أرض الله،

فصار أمةً وحده:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

يا عبد الله...

قد ترى أن الحق قليل، وأهله غرباء،

وأن الباطل منتشرٌ وله سلطان،

لكن تأمل في قصة الخليل،

كيف جعل الله الضعف قوّة، والوحدة إمامة،

وكيف أن الهجرة إلى الله، وإن بدت في ظاهرها قطيعة،

هي باب الإمامة في الدين، وميراث النبوَّة،

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

تأملات في قصة مريم عليها السلام

تأمل...

في فتاةٍ صغيرة، لم تكن نبيَّة، ولا رسولًا،

ولا صاحبة منصب ولا جاه،

وإنما كانت أنثى ضعيفة في أعين الناس،

تعيش في بيت العبادة، لا في بيت المُلك،

ولدت لأمٍ نذرتها لله، ووضعتها أنثى،

فقالت أمها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾

كأنها تقول: يا رب! ما بلغ النذر مراده،

فأتاها الرد من مولاها: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾

نعم... فهي أنثى،

لكنَّها ستبلغ ما لم يبلغه كثير من الرجال!

لأن الله غالبٌ على أمره.

تأمل...

كيف كفلها نبي الله زكريا،

فتربَّت في بيت النبوة، وتحت ظلال الطهارة،

حتى إذا نادتها الملائكة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

كانت على قدر هذا الاصطفاء،

فقلبها موصول بالله، ولسانها لا يفتر عن ذكره،

تعبد ربها في المحراب،

حتى تعجَّب زكريا من رزقها، فقال:

﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

فكان يقينها بالله أكبر من سؤال الناس!

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾

تأمل...

في لحظةٍ تهزّ القلوب:

جاءها جبريل بصورة بشر سوي،

وقالت في خوفها وحياء قلبها:

﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾

فأُخبرت بما لا يُصدَّق عادة:

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾

فقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

فقال: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾

سبحانه! وتقدست أسماؤه

يخلق من غير نطفة، ويرزق من غير سبب،

لأن الله غالبٌ على أمره!

تأمل...

في فتاة تحمل جنينًا بلا زوج!

وتتوجَّه وحدها في المخاض إلى جذع نخلة!

بعيدًا عن العيون، خوفًا من القوم،

وقد بلغت القلوب الحناجر، وقالت:

﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾

لكن الله لا يترك أولياءه...

فإذا بالسكينة تنزل،

وإذا بالمولود ينطق،

وإذا بالجدول ينبع تحت قدميها،

وإذا بالنخلة اليابسة تهزُّها فتُساقط عليها رطبًا جنيًا!

إنه لطف الله الخفي، إنه غلبة أمره، ولو خذلها الناس.

تأمل...

كيف رجعت إلى قومها تحمله،

وهي تعلم ما سيقولون،

فجاءتهم به في يدها، ولسان حالها:

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾

فقالوا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾

لكنها أشارت إليه فقط!

وإذا بالطفل الرضيع يتكلم،

ويقول: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠﴾

فسكتت الألسن، وانقطع الكلام،

لأن الله غالبٌ على أمره.

تأمل...

كيف أراد الناس أن يُخزوا مريم،

فجعل الله مولودها آية!

وأرادوا أن يتَّهموها في عرضها،

فجعل الله من نسلها المسيح عيسى عليه السلام،

وأرادوا أن تكون صفحة سوداء في التاريخ،

فجعل الله اسمها عنوان الطهر والعفاف،

فخصَّها بسورة كاملة في كتابه العزيز، (مريم)

يا عبد الله...

قد يظن الناس بك ظنَّ السَّوء،

وقد تتغير نظرتهم بكلامٍ لا أصل له،

وقد يضيق صدرك من البلاء،

لكن اصبر كما صبرت مريم،

واسكن إلى يقينك بالله كما سَكَنَتْ،

واعلم أن الله يعلم،

وأن الله يرفع،

وأن الله يُظهر الحق...

ولو طال الزمان،

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة يوسف: ٢١].

تأملات في قصة أصحاب الكهف

تأمل...

في فتيَةٍ حزاورة، في أول طريق الشباب،

لم يحملوا سيفًا، ولم يثوروا في شوارع مدينتهم،

ولم يرفعوا رايةً ولا شعارًا...

لكنهم حملوا أعظم كلمة في الوجود:

لا إله إلا الله!

فما كان جزاؤهم؟

الطرد، والاضطهاد، والتهديد، والملاحقة.

لكنهم اختاروا الله، وآثروا الإيمان،

وقالوا بلسان الصدق:

﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾

فعزموا على الفرار لا خوفًا، بل ثباتًا.

تركوا القصور، وخرجوا للكهف،

إلى جبلٍ أجرد لا يسكنه أحد،

ولكنهم لم يكونوا وحدهم، بل كان الله معهم،

وكان الله غالبًا على أمره!

تأمل...

كيف خلعوا عنهم زينة الدنيا،

ورضوا بكهفٍ مظلمٍ على أن يرضوا بشركٍ لامع!

هربوا بدينهم إلى مغارة ضيقة،

فوسع الله لهم فيها الأرض،

وبسط لهم الرحمة، ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

فلم يكن فرارهم هزيمة، بل كان نصرًا يخلده القرآن،

وقصتهم آية تتلى إلى يوم القيامة!

تأمل كيف ناموا...

لكن لم يكن نومًا عاديًا،

بل نومًا بأمر الله،

نومًا تجاوز الزمن، واختزل القرون،

وجاوز عصورًا وأجيالًا!

ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا،

لكن أجسادهم لم تأكلها الأرض،

وعيونهم مفتوحة، وهم رقود،

والشمس تميل عنهم ذات اليمين وذات الشمال،

وكل شيء يتحرك حولهم إلا هم،

لأن الله أراد أن يُبقيهم آية،

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾

تأمل...

كيف غيَّبهم الله عن أعين الناس،

فلم يكتشفهم أحدٌ طَوال هذه القرون،

حتى أذِنَ الله أن يُبعثوا من نومهم،

ليقع على أيديهم الجواب لسؤالٍ كان يموج في الأمة:

أفي البعث حياة بعد الموت؟

فقاموا من رقدتهم،

فأصبحوا الدليل الحي، والبُرهان القاطع،

أنَّ الله يحيي من في القبور،

وأن العظام وهي رميم تُبعث من جديد،

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾

تأمل...

كيف خافوا أن يُكتشف أمرهم إذا خرجوا!

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾

فخرج أحدهم، يظن أن الزمان ما زال كما هو،

فإذا به يرى مدينة غير المدينة،

وناسًا غير الناس،

وقلوبًا فيها إيمان، ولسانًا يذكر الله،

ناموا والناس مِن حولهم كفارٌ،

وقاموا والمساجد تعمُر بذكر الله،

من الذي عمرها؟

من الذي أحياها؟

من الذي رفع ذكره؟

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾

تأمل...

كيف خلد الله ذكرهم، فأنزل فيهم سورة،

سمَّاها بما يُذكِّر بهم،

تُتلى في كتاب الله،

وتُحفظ في الصدور،

وتُنقش على ألواح الصغار،

فلم يكونوا ملوكًا ولا أنبياء،

لكنهم كانوا فتيانًا صدقوا الله، فصدقهم الله.

يا عبد الله...

قد يضيق عليك المكان،

ويُحارب فيك الإيمان،

ولكن اعلم أنَّ كهفًا فيه رضا الله،

خير من قصرٍ فيه سخطه،

وأن الله إذا أحب عبدًا،

جعل له من ضيق الكهوف مفاتيح للخلود،

وأنك إن عجزت عن الانتصار،

فحسبك أن تثبت على الحق،

فإن الله ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾

تأملات في قصة أصحاب الأخدود

تأمل...

في قصة الغلام...

كيف بدأ ضعيفًا فانتهى أُمَّةً،

وكيف كان مجهولًا فأصبح منارةً يهتدي بها الناس،

وكيف أراد الملك أن يُطفئ النور،

فإذا بالنور يعمُّ البلاد ويبلغ القلوب!

كان غلامًا صغيرًا،

لا يملك سلاحًا ولا جاهًا ولا سلطانًا،

لكنه كان يحمل أعظم سلاح:

الإيمان بالله والتوكل عليه.

أراد الملك أن يطبع قلوب الناس على الكفر،

فساق الغلام إلى ساحرٍ يعلمه الكيد،

ويغرس فيه حب الشر والولاء للباطل...

لكن الله ساق إليه راهبًا صالحًا يعلمه التوحيد،

ويغرس في قلبه الإيمان والصدق.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾

تأمل...

كيف دُبّر له الشر، فصار له باب هداية،

وكيف أن الله يُجري الخير من حيث لا يحتسب أحد!

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.

أراد الملك أن يُسكت هذا الغلام.

فأمر بإلقائه من على جبل...

فإذا بالجبال تحفظه بأمر الله،

وإذا بخالقه ومولاه ينجيه.

ليعود إلى الناس أعظم وأقوى.

يحمل في قلبه يقينًا لا يتزعزع.

ويقود دعوة التوحيد، وهو لا يزال غلامًا!

ثم أراد الملك أن يرميه في البحر،

فأخذوه على قارب وهمُّوا بإغراقه...

فنجَّاه الله مرة أخرى.

عندها قال الغلام كلمته التي زلزلت عرش الظلم:

"لستَ بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به...

اجمع الناس، ثم خذ سهمًا من كنانتي، وقل: بسم الله رب الغلام..."

يا ألله!

غلامٌ يعلِّم الملك كيف يُقتل!

غلام يقول للعالم كله:

إن الأمر كله لله، وإن القلوب بيده،

وإن الدماء الزكية قد تُشعل نورًا لا ينطفئ!

فسقط الغلام... وسال دمه...

لكن الكلمة بلغت... والحق ظهر...

وصاح الناس بصوتٍ واحد:

"آمَنّا بِرَبِّ الغُلَام!"

أرادوا بقتله أن يُطفئوا نور الهداية...

فإذا بالنور يتوهّج، وإذا بالإيمان يعُمّ،

أرادوا أن يجعلوا منه عِبرةً للمرتدين،

فجعله الله آيةً للمهتدين.

أرادوا أن يُدفن الحق معه،

فإذا به يولد في قلوب الآلاف،

ويُروى بدمه شجرُ الإيمان في الأمة.

فسبحان من إذا أراد شيئًا هيّأ له أسبابه،

وإن خالفته الدنيا كلها!

وسبحان من جعل غلامًا صغيرًا

ينتصر على ملك جبار،

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾

تأمل...

كيف غضب الملك... وأوقد النار...

فحفر أخدودًا عظيمًا، وأوقد فيه نارًا شديدة،

وأمر أن يُلقَى فيها كلُّ من آمن برب الغلام!

تأمل هذا المشهد العجيب:

الناس يُساقون إلى النار،

والخيار واضح:

إما الإيمان فالنار،

أو الكفر والنجاة...

فآثروا الإيمان والثبات، وقالوا بقلوبٍ مطمئنة:

"لن نكفر بربنا ولو أحرقتمونا بالنار!"

ساقوهم رجالًا ونساءً وأطفالًا...

ومن بينهم امرأة مؤمنة،

تحمل في حضنها رضيعًا صغيرًا،

فوقفت على شفير النار، فترددت،

فإذا بالرضيع ينطقه الله بكلمات تهز الجبال:

"اصبري يا أُمّاه! فإنك على الحق!"

يا أ لله...

رضيعٌ يتكلم في لحظة الحق والثبات!

إنها كرامة للصادقين، وتثبيتٌ من الله للموقنين.

فثبتت الأم... وارتقت في سبيل الله،

وسُجِّل اسمُها في سجل الخالدين.

أرادوا أن يطفئوا النور...

فإذا بالنور ينتشر في كل مدينة،

وفي كل قرية،

وفي السهل والوادي،

وفي قلب كل من قرأ هذه القصة وآمن بها.

أرادوا أن يخرجوا المؤمنين ليشتتوا صفهم،

فإذا بقلوبهم تجتمع على التوحيد وتثبت على اليقين.

أرادوا أن لا يعلم أحدٌ عنهم شيئًا،

فإذا بهم يُروى ذكرهم في القرآن،

ويصبحون معلمين للناس،

ينهَلُ الناس من قصصهم دروس العزة والثبات.

فتأمل في حياتك أنت!

لعلَّك اليوم تشعر بالضعف... كما كان الغلام.

وتظن أنك لا تأثير لك... كما ظنه الناس.

لكن...

إذا كنت مع الله، وصدقت نيتك، وثبتت على الحق...

فلعل الله يجري على يديك نورًا يهتدي به الناس،

ويجعلك سببًا في نهضة أمة!

فإن الله لا ينظر إلى ضعفك، بل ينظر إلى صدقك.

فإذا واجهتك الشدائد،

وخانك القريب،

وأُغلقت الأبواب،

وتكالب عليك أهل الباطل...

فلا تنسَ:

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.

فكن مع الله... يكُنِ الله معك!

تأمل في هجرة النبي ﷺ

تأمل ...

خرج النبي ﷺ من مكة لا فاتحًا ولا ظاهرًا،

بل مُطارَدًا مهدور الدم، يُبحث عنه حيًّا أو ميتًا.

خرج من أحبِّ أرض الله إلى قلبه،

مطرودًا من قومه، في ظلمة ليلٍ حالك،

وقلوب قريش مشحونة بالبغضاء،

وقد أجمعت القبائل أمرها على قتله،

لكن في الغيب أقدار مكتوبة،

وفي السماء ربٌّ يدبِّر شئون خلقه،

ويكيد لأوليائه،

وفي القلب يقين يهمس:

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ ...

تأمل...

كيف اجتمع كفار قريش في دار الندوة،

خطَّطوا وفكَّروا،

فمن قائل: اسجنوه،

ومن قائل: أخرجوه،

ومن قائل: اقتلوه،

وظنوا أنهم يُديرون الخيوط،

فأدار الله عليهم مكيدتهم،

وأخذ القرار الحق من بينهم ليدبر أمر الهجرة،

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٠].

تأمل ...

كيف نام عليٌّ رضي الله عنه مكان النبي ﷺ في الفراش،

وخرج النبي ﷺ من بينهم،

أعمى الله أبصارهم،

وتخطَّى النبي ﷺ أعينهم،

وهم واقفون ببابه، ينتظرون خروجه للقتل!

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة يس: ٩].

تأمل...

النبي ﷺ في الغار، وقد أحاط به القوم من كل مكان،

لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآه!

وصاحبه خائفٌ لا على نفسه، بل على حبيبه ﷺ،

فقال له النبي ﷺ كلمات هي تاج على رأس الثابتين:

"يا أبا بكر، ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟!"

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: ٤٠].

وهنا تتجلّى الحقيقة الخالدة:

إن كانت الأرض كلها ضدك،

ولكن الله معك، فحسبك!

وتأمل...

كيف أنفق أبو بكر ماله كله، وجهَّز الراحلتين،

وكيف دُبِّرت الهجرة في هدوء، بتخطيط محكم،

عبد الله بن أبي بكر يأتي بالأخبار،

عامر بن فهيرة يطمس الآثار،

أسماء تأتي بالطعام،

والنبي ﷺ يختبئ في الغار...

وكل شيء يسير تحت ستار الضعف والهرب،

ولكن الحقيقة هي:

أن الأرض كانت تُعبَّد لخيرٍ قادم، ونورٍ يملأ الدنيا!

ثم تأمل...

كيف سخَّر اللهُ أعداءه لإظهار عظمته:

جاء سراقة بن مالك يطارد النبي ﷺ طمعًا في الجائزة،

فساخت قدما فرسه في الرمال،

حتى أمره النبي ﷺ أن يرجع،

وأعطاه وعدًا يفوق خياله:

«كيف بك إذا لبست سوارَي كسرى؟!»

ما هذه الثقة العظيمة بالله سبحانه؟!

وهو طريد في صحراء مكة،

يُوَعِد بالوصول إلى عرش فارس!

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.

وقد فعلها عمر، وألبس سراقة سواري كسرى على منبر المدينة!

وتأمل...

دخول النبي ﷺ المدينة:

دخلها لا خائفًا، بل آمنًا،

مهاجرًا لا هاربًا،

ليبدأ تأسيس دولة، وينطلق نور الرسالة،

من دار الأرقم إلى أطراف الشام واليمن،

ومن الغار الضيق إلى آفاق الأرض!

فشتان بين خروجه ودخوله،

فتأمل...

كيف خرج النبي ﷺ في ظلمة الليل، يخطو خائفًا على نفسه،

لكن الله أغلق أعين المتربصين،

وكيف سار في شعاب الجبال بين مطاردات الكفار،

لكن الله هيّأ له رَكبًا وآوى له قلوبًا،

وكيف وصل إلى المدينة، لاجئًا،

فصار بها قائدًا وأميرًا ونبيًّا...

إنها آية تتكرر:

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.

وإنك إن نظرت إلى قصة الهجرة بعين القلب،

رأيت أن كل خيطٍ كان مملوكًا لله،

وأن كل مكيدة خُطّطت ضد النبي ﷺ،

ردّها الله عليهم، وجعلها سُلَّمًا لرفعته ﷺ.

فيا عبد الله،

إن ضاقت بك الطرق، فلا تنسَ الغار،

وإن تكالب عليك القوم،

فلا تنسَ قول النبي ﷺ لصاحبه:

«لا تحزن إن الله معنا»

وإن وعدك الله بنصر،

فلا تستبعده ولو كنت في الثرى،

فقد لبس سراقة سواري كسرى...

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾

تأملات في يوم بدر

تأمل...

كيف خرج النبي ﷺ وأصحابه لا يريدون قتالًا،

ولا يحملون عدَّة حرب،

إنما خرجوا لاعتراض قافلة تجارية لقريش،

خفيفة الحراسة، ثقيلة المال،

لكن أراد الله أن تكون غزوة فاصلة،

تُكسر فيها شوكة الشرك،

وتُرفع فيها راية الإسلام،

لأن الله غالبٌ على أمره!

تأمل...

كيف خُيِّر المسلمون بين القافلة والقتال،

فاختاروا القافلة،

فقال الله تعالى:

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾

ولكن ...

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾

فانقلبت الخطة كلها بقدرٍ رباني،

وانقلبت المعركة لصالح المؤمنين،

لأن الله غالبٌ على أمره!

تأمل...

في معركة غير متكافئة،

ثلاثمائة مؤمن مقابل ألف مشرك،

قلة عدد، وضعف عُدَّة، وفقر في السلاح،

ومع ذلك:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

ففي بدر... لم يكن النصر بكثرة ولا قوة،

بل بنية صادقة، وقلوب معلقة بالله،

لأن الله غالبٌ على أمره!

تأمل...

كيف نام النبي ﷺ تلك الليلة في العريش،

وأبو بكر يحرسه،

والنبي ﷺ يناجي ربه داعيًا:

"اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض"

حتى سقط رداؤه،

فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه،

ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله،

كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك

لأنه يعلم أن الله غالب على أمره

فأنزل الله سكينته، وأيّده بجنود من عنده،

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ
أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾

نعم... نصرٌ من فوق سبع سماوات،

لأن الله غالبٌ على أمره!

تأمل...

في نزول الملائكة من السماء،

يقاتلون مع المؤمنين،

ويثبّتون أقدامهم،

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

إنها معركة يحسمها الحق،

لا كفة السيوف، بل كفة الإيمان،

لأن الله غالبٌ على أمره!

تأمل...

كيف وقع زعماء الكفر في القليب،

أبو جهل، عتبة، شيبة، أمية...

كانوا سادة قريش،

ومع ذلك جُرّوا جثثًا هامدة إلى بئر لا يُعرف لهم بعدها ذكر،

بينما علَت راية نبينا محمد ﷺ،

وانتصر الموحدون،

لأن الله غالبٌ على أمره!

تأمل...

في أول الغنائم، وأول الأسرى، وأول النصر،

وما زال الإسلام غضًّا، والمسلمون قلّة،

لكنه يوم فرَّق الله فيه بين الحق والباطل،

وسمّاه: {يَوْمَ الْفُرْقَانِ}

﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الأنفال: ٤١].

وذكره في كتابه، ليبقى نبراسًا لكل من خاف ووهَن،

أن النصر ليس بقوة، بل بثبات على العقيدة،

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾

فيا من خاف من قلة ناصره...

ويا من اضطرب قلبه لكثرة عدوه...

ثق بالله، وأحسن التوكل عليه،

وتذكَّر بدرًا...

وتذكَّر أن الله غالب على أمره.

تأملات في يوم الخندق

تأمل...

في تلك الليلة الباردة، حيث اجتمعت أحزاب قريش،

ومعهم حلفاؤهم من اليهود والعرب،

يثقلون بالعدد، ويثقلون بالعدة،

يأملون أن يطردوا النبي ﷺ وأصحابه من المدينة،

ويهدمون بإرادتهم عرش الإسلام ومهد الرسالة،

لكن الله شاء أن تكون المدينة حصنًا منيعًا،

وأن تُردَّ كل خططهم عليهم،

لأن الله غالب على أمره!

تأمل...

كيف حفر الصحابة خندقًا عظيمًا حول المدينة،

لا دفاع فيها إلا حُسن التوكل واليقين،

وكأنهم يقولون: هذا هو حصننا، وهذه شرفتنا،

وليس لنا غير الله نستنصره،

وصوتهم يعلو بالدعاء:

"اللهم أعز الإسلام والمسلمين"

وذلك من أهم أسباب النصر،

فالموقف عزيمة، والإيمان سلاح،

وما كان لهم إلا أن يثقوا بالله،

فكان الله معهم، فغلب أمره!

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [سورة يوسف: ٢١].

تأمل...

كيف ظلَّ الحصار طويلاً ومريرًا،

وصبر المسلمون صبر الأبطال،

وفي المقابل جُن جنود الكفر، فازدادت قلوبهم رهقًا،

وحدث بينهم خلافات وصراعات،

حتى تشككوا في نصرتهم،

لكن الله رفع من عزيمة المؤمنين،

وأرسل الرياح العاصفة،

فجعل من المدينة حصنًا لا يُقهَر،

لأن الله غالب على أمره!

تأمل...

في حال النبي ﷺ وحال أصحابه،

وهم الذين رأوا من ذلٍّ وفرار أعدائهم ما يُقوّي عزيمتهم،

ثم إذ بزينة النصر تلوح،

فماذا كان بعد؟

ومن أين كان النصر؟

قال الله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٩].

حتى كان الضعف في صفوف الأحزاب،

والخوف يملأ أفئدتهم،

ففروا هاربين،

وتركوا ساحات القتال،

وحُطِّم السلاح، وفر المجرم الباغي،

لأن الله غالب على أمره!

تأمل...

كيف كان النصر صادقًا،

ولكنه لم يكن بالسلاح وحده،

بل بنور اليقين، وبسلاح الصبر،

وليس ذلك إلا من فضل الله ورحمته،

الذي حفظ المدينة،

وحفظ دينه، ورفع راية الحق،

فكن على يقين: أن الله غالب على أمره.

تأمل...

في هذا اليوم المبارك،

كيف تاه الأعداء في فزعهم،

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾

فاستقرّت أركان الدولة الإسلامية،

وبزغ نجم الإسلام وعلا،

لينتشر في أرجاء الأرض،

ويملأ الأرض قسطًا وعدلاً،

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾

فيا من تَخاف هزيمتك أمام عدوِّك،

وتَجزع من كثرته، تذكّر يوم الخندق،

وتذكّر أن وعد الله حق، وأن نصره قريب،

وأنه غالبٌ على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

تأملات في يوم الحديبية

تأمل...

في ذلك اليوم،

وقف النبي ﷺ وأصحابه على مشارف مكة،

حاملين هممًا عالية، ونيات صافية،

يريدون أداء العمرة،

لكن قريشًا أغلقت الأبواب،

وأعلنت المنع،

فكان الموقف صعبًا، مؤلمًا،

والنفوس تشتعل شوقًا للمسجد الحرام،

لكن الحكمة الإلهية جاءت مغايرةً،

فكان صلح الحديبية،

اتفاقٌ يراه البعض تنازلًا،

لكن الحقيقة كانت نصرًا مستترًا،

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [سورة الفتح: ١].

قال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟!

قال: نعم.

لأن الله غالب على أمره!

تأمل...

كيف كان القرار صعبًا على القلوب،

لكن النبي ﷺ أظهر ثباتًا وحكمة،

فكان يقول لأصحابه:

"إني رسول الله، ولن يضيعني الله"،

ويقول أبو بكر: "إنه رسول الله، ولن يضيعه الله"،

في وقت كان فيه الظاهر أن المسلمين قد تنازلوا،

لكن الله يهيأ لهم أمرًا عظيما، ونصرًا كبيرًا

لأن الله غالب على أمره!

تأمل...

كيف وقع الصلح،

وحُدِّدت شروطه التي بدت ثقيلة على المسلمين،

كالعودة إلى المدينة هذا العام، ومنع الدخول إلى مكة،

لكن كان في الصلح فُسحةٌ وسكينة،

ومع مرور الأيام، بدأ الإسلام ينمو،

وفتحت القلوب، وانضمت القبائل،

وأثمر الصلح سلامًا، وفرصةً للتعريف بالدين،

فكانت الغلبة الإلهية، وليست بالقوة البشرية!

تأمل...

كيف بعد سنوات قليلة،

دخل النبي ﷺ مكة فاتحًا،

بغير قتال، وبغير دماء،

واستُرجِعَ المسجد الحرام،

وأزال الأصنام،

وبسط راية التوحيد،

وكان ما حصل في الحديبية بداية الطريق للنصر العظيم،

لأن الله غالب على أمره!

تأمل...

كيف أن التراجع الظاهري؛

كان مقدمةً لتقدم أبد الدهر،

وأن السكينة التي أعقبت الحديبية؛

كانت سببا في زيادة الأنصار،

ومضى الدين يتسع،

ويزداد قوة وصلابة،

والأعداء الذين ظنوا أنهم أوقفوا الإسلام،

كانوا سببًا في نشره وانتشاره،

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾

فيا من تظن أن خسارةً تصادفك في الحياة نهاية،

وتظن أن التراجع ضعف،

تذكر يوم الحديبية،

تذكر كيف قاد النبي ﷺ أصحابه بصبر وحكمة،

وأن الله غالبٌ على أمره،

وأنه لا يُضيع أجر الصابرين.

تأملات في حادثة الإفك

تأمل...

في وقتٍ ظهر فيه بعض المبطلين،

الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر.

ضاقت نفوسهم بأهل الإيمان

فرأوا أن المدينة لا تتسع لبقائهم.

فكادوا لأهل الإيمان كيدا كبارًا

فكانت حادثة الإفك،

ابتلاء صعب على نفس طاهرة،

وقلب مكنون للخير والبر،

فارتفع الضجيج، وصعب التمييز،

فابتلاهم الله شهرًا كاملا لا ينزل فيه وحيٌ

ولكن الله لم يترك أولياءه،

فكان الظهير والناصر، والحامي لهم،

لأن الله غالب على أمره!

تأمل...

كيف أنزل الله تبرئة عائشة رضي الله عنها،

لتكون براءتها شاهدة للأجيال،

وذخراً للأمة، والله غالب على أمره!

تأمل...

كيف صبر النبي ﷺ وزوجته على هذا البلاء،

وكيف وقف الرسول حكيمًا لا يجزع،

ولا يثقل القلوب بظنون لا تثبت،

وكان ينظر إلى السماء، ويركع لله،

ويعلم أن الحق لا بد أن يظهر،

وأن وعد الله حق،

فكان الصبر جسر النصر،

والله غالب على أمره!

تأمل...

في درس عظيم للأمة كلها:

أن الغيبة والكذب دمار،

وأن الظنون السيئة محرمة،

وأن التثبت والعدل أساس كل أمر،

وأن الله يُظهِر الحق مهما طال الزمن،

وأن من صبر وثبت على الحق،

نال رضا الله ومغفرته،

لأن الله غالب على أمره!

تأمل...

كيف تحولت المحنة إلى منحة،

وكيف عزز الله مكانة عائشة،

وجعل براءتها نبعًا للنقاء والصدق،

فبعد أن كانت تتمنى أن يرى النبي ﷺ رؤيا تظهر فيها براءتها

أنزلت آيات في كتاب الله ترفع من قدرها، وتعلي من شأنها،

فصار هذا البلاء سببًا في قوة الإيمان،

ونقاء الصفوف،

وذلك من فضل الله، فإنه غالب على أمره!

يا عبد الله...

لا تسمح للشكوك أن تعمي بصيرتك،

ولا تفرّق بين قلوب المسلمين بالغيبة والبهتان،

واحتكم إلى كتاب الله وسنة نبيه،

وثق أن الله يُظهر الحق، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [سورة يوسف: ٢١].

تأملات في قصة الإمام أحمد بن حنبل

تأمل ...

كيف تتجلى فيها سُنَّة الله

أرادوا أن يُطفئوا نور الحق،

فإذا بالنور يتوهج في الأرض شرقًا وغربًا...

أرادوا أن يُسكِتوا صوت السنة،

فإذا بذلك الصوت يُروى في المساجد،

والمنابر والكتب والقلوب...

أرادوا أن يُركعوه بالباطل،

فرفعه الله بالثبات إلى مصافِّ الأئمة الكبار،

وخلَّد ذكره مع الصادقين الأبرار...

لقد بدأت القصة في زمن ظهرت فيه الفتن،

وتسلط فيه أهل البدعة،

فحمل المأمون والمعتصم والمُتوكل على رقاب العلماء سوط الفتنة:

القول بخلق القرآن...

فخاف الكثير،

وسكت الكثير،

وأُجبر الكثير...

لكن الإمام أحمد ثبت،

وقف وحده يدافع عن كلام الله،

ويُعلن أن القرآن كلام الله غير مخلوق،

وأنه كلام الله الذي تكلم به حقيقة.

فأُخذ من بين أهله، وجُر بالسلاسل،

وضُرب بالسياط حتى غشي عليه،

كل ذلك لأجل كلمة يقولها: "القرآن مخلوق"،

فأبى، وثبت، وصبر، وقال:

"إن سكتُّ أنا، وسكت الناس، فمتى يُعرف الحق؟!"

فانظر كيف كان وحده...

ثم جعل الله له قلوبًا تهتف بحبه في كل عصر،

كان في السجن...

فصار رمزًا للثبات على الدين،

كان بين أيدي الجلادين...

فصار يُذكر بين أيدي السلاطين،

وكانوا يضربونه في الظلام...

فأنار الله بثباته طريق العلماء والدعاة والمجاهدين.

أرادوا إذلاله... فأعزه الله

أرادوا خنق صوته... فجعل الله صوته آية باقية،

قال أحدهم يوم جنازته:

"ما صُلِّي على أحد في بغداد كما صلِّي على أحمد!"

لقد أرادوا كسر عزيمته، فكسر الله جبروت خصومه،

أرادوا إخضاعه بالباطل،

فأخضع الله به قلوب المسلمين...

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

تأملات في قصة خروج أهل السنة من دماج

تأمل...

في أرض دماج، حيث اجتمعت القلوب على الإيمان،

وقف أهل السنة صامدين في وجه العواصف،

تلقوا في سبيل الحق أشد البلاء،

وتحملوا ألوان المحن؛

من قتال وتهجير وتهديد،

لكن إيمانهم كان السلاح،

وصبرهم كان الدرع،

فأراد الله لهم أن يكونوا مثالاً في الثبات،

لأن الله غالب على أمره!

تأمل...

كيف جعل الله رؤيا سببًا في إخراج جثث الشهداء،

الذي كانوا قد قتلوا في الحصار الأول،

فأخرجوا بعد ثمانية عشر شهرًا،

وأجسادهم كما هي لم تتأثر على طول الوقت،

ليجعل الله ذلك آية وعلامة،

على صدق أولئك الذين قاتلوا في سبيل الله،

وما ذاك إلا لتتهيأ النفوس لحصار أكبر،

وأمرٍ أعظم، وبلاءٍ أشد،

والله غالب على أمره،

فما جاء الحصار الثاني إلا والقلوب في أوج ثباتها،

فأبلى الله المؤمنين بلاءً حسنًا،

والله غالب على أمره،

وتأمل...

كيف كان هذا التمحيص تمهيدًا لأمرٍ أعظم،

وهو حمل همِّ الأمة،

ودعوة الناس إلى دين ربهم،

فظاهر الحصار شرٌ مرير،

وباطنه رحمة لأهل الحق والناس،

ورفعة يقودهم الله إليها وهم لا يشعرون،

فجاء القرار بإخراجهم،

وترحيلهم،

وتهجيرهم،

فخرجوا باكين حزينين،

وما دروا أنهم يُقادون إلى عِزهم،

والله غالب على أمره.

فتأمل...

كيف أراد أعداؤهم أن يطفئوا نورهم،

فما كان إلا أن انتشر ذلك النور في كل مدينة،

وفي كل قرية،

وفي السهل والواد،

فصار نورهم هادياً لمن ضلّ،

ومضيئًا لمن استضاء،

وأصبحوا شعلة لا تنطفئ في دروب الظلام،

لأن الله غالب على أمره!

تأمل...

أرادوا إخراجهم من ديارهم لكي يتشتتوا،

فجمع الله قلوبهم على الهدى،

وجعلهم بيتًا واحدًا، وكتلة متماسكة،

صامدين صابرين، متوكلين على الله،

فكان خروجهم خروجَ قوة وعزيمة،

لا خروج ضعف وهروب،

لأن الله غالب على أمره!

تأمل...

كيف أرادوا أن لا يعلم الناس بهم،

لكنهم صاروا معلمين،

ينهل الناس من علومهم،

وينيرون طريق الباحثين عن الحق،

فصاروا منارات علم، ومنابع هداية،

يرفعون راية السنة،

ويحفظون دين الله،

ويسيرون على طريق الدعوة إلى الله،

لأن الله غالب على أمره!

تأمل...

فإن في هذه القصة عبرة لكل مؤمن:

أن المحن تُظهر معدن الإنسان،

وأن البلاء لا يميت الحق، بل يزيده بريقًا،

فكن كأهل السنة في دماج،

ثابتًا على الحق، صابرًا على الشدائد،

واثقًا بوعد الله،

فإن الله غالب على أمره،

وإن وعده حق،

ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

خاتمة

أخي الكريم

إذا تأملت في هذه المحطات،

من يوسف في الجب، إلى موسى في اليم،

ومن إبراهيم في النار، إلى الغلام في كف الملك،

ومن الخليل المصطفى في الغار،

إلى أصحاب الأخدود في النار،

ومن الإمام أحمد في فتنة القول بخلق القرآن،

إلى أهل دماج حين أخرجوا،

بل من كل عبد صدق مع الله، وامتحنه البلاء،

ثم أظهر الله له آيات نصره...

فستعلم أن هناك سنَّة ثابتة لا تتبدل:

أن الله يُمهل ولا يُهمل،

ويبتلي ليُهذب،

ويؤخر النصر ليكون أثبت وأظهر،

وأن كل ضعف في ظاهره قد يخفي عزًّا،

وأن كل محنة قد تلد من رحمها منحة،

وأن الله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

تأمل في نفسك...

كم مرة ضاقت بك السبل؟

ثم فُتحت.

وكم مرة أُغلق الباب في وجهك؟

ثم جاءك الفرج من حيث لا تحتسب.

كم مرة ظننت أنها النهاية؟

فإذا بها البداية.

وكم مرة كنت كسيرًا؟

فجبَرك الله بلطفه.

كم ليلة بكيت فيها ظنًّا أن الصبح بعيد؟

فطلع الصبح وأنت تضحك.

كم من طريقٍ سدّه الناس في وجهك؟

فشقَّ الله لك فيه نورًا؟

كم مرة خذلك الخلق، فآواك الخالق؟

كم مرة قال الناس: انتهى،

فقال الله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

وكم مرة تاهت بك الحيرة، فهداك الله بآية؟

وكم مرة عصفت بك الهموم؟

ثم مرَّ نسيم الفرج من حيث لا تدري.

كم مرة سقطت، فقوّاك الله؟

كم مرة ظننت أنك وحدك، فإذا باللطف الخفي يغمرك؟

وكم مرة حسبتها خسارة، فإذا بها خيرٌ مدخور لك عند الله؟

وكم مرة هممت باليأس، فجاءك من ربك ما يوقظ الأمل؟

كم مرة تأخر عليك المراد، حتى نسيت الدعاء،

فأعطاك الله إياه بغير حول منك ولا قوة؟

كم مرة سُلبت شيئًا تحبه،

فوهبك الله ما هو خيرٌ منه أضعافًا مضاعفة؟

تأمل في كل ذلك...

أليس في كل لحظة منها شاهدٌ أن الله غالب على أمره؟

وأن التدبير فوق ما ترى،

والحكمة أوسع مما تفهم،

وأن وعد الله لا يُخلف،

وأن رحمته لا تنقطع؟

فإذا واجهتك الصعاب،

فاعلم أن الله غالب على أمره.

وإن أثقلتك الحياة بالأتعاب،

فاعلم أن الله لطيف بعباده.

وإن اشتدت عليك الغموم والكروب،

فاعلم أن الله أرحم بك من نفسك،

وأنه لا يُضيع من احتمى بجنابه،

ولا يخيب من توكل عليه.

عبد الله...

اثبت كما ثبت الغلام،

واصبر كما صبر الإمام،

ولا تنظر إلى ضعفك،

بل إلى قوة ربك،

ولا تنظر إلى عدد من يقفون ضدك،

بل إلى الله الذي يقف معك،

فمن كان الله معه، فلا يهمه شيء،

ومهما طال ليل الظلم،

فلابد أن يُشرق فجر العدل،

ومهما اشتد البلاء،

فلابد أن ينزل الشفاء،

ومهما تعاظم كيد الطغاة،

فلابد أن تنكسر سيوفهم أمام إرادة الجبَّار.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٥].

فهرس الموضوعات

مقدمة ٢

تمهيد ٧

الوقفة الأولى ١٠

في معنى الآية. ١٠

الوقفة الثانية ١٤

ما يستفاد من الآية. ١٤

الوقفة الثالثة ١٩

تأملات في بعض قصص القرآن على ما دلت عليه الآية. ١٩

تأملات في قصة يوسف. ٢٤

تأمل في قصة يوسف عليه السلام ٢٤

تأمل ٢٦

وتأمل... ..... ٢٧

وتأمل... ..... ٢٨

وتأمل... ..... ٢٨

تأملات في قصة موسى عليه السلام ٣٠

تأمل ٣٠

وتأمل... ..... ٣١

وتأمل... ..... ٣٢

وتأمل... ..... ٣٣

وتأمل... ..... ٣٤

تأملات في قصة إبراهيم ٣٧

تأمل... ..... ٣٧

تأمل... ٣٨
تأمل... ٣٨
تأمل... ٤٠
تأمل... ٤٠
يا عبد الله... ٤١
تأملات في قصة مريم عليها السلام ٤٢
تأمل... ٤٢
تأمل... ٤٢
تأمل... ٤٣
تأمل... ٤٤
تأمل... ٤٤
تأمل... ٤٥
يا عبد الله... ٤٦
تأملات في قصة أصحاب الكهف ٤٧
تأمل... ٤٧
تأمل... ٤٨
تأمل كيف ناموا... ٤٨
تأمل... ٤٩
تأمل... ٤٩
تأمل... ٥٠
يا عبد الله... ٥١
تأملات في قصة أصحاب الأخدود ٥٢

تأمل... ٥٢
في قصة الغلام... ٥٢
تأمل... ٥٣
يا ألله! ٥٤
"آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَام!" ٥٤
تأمل... ٥٥
يا أ لله... ٥٦
فتأمل في حياتك أنت! ٥٧
تأمل في هجرة النبي ﷺ ٥٨
تأمل ... ٥٨
تأمل... ٥٨
تأمل ... ٥٩
تأمل... ٥٩
وتأمل... ٦٠
ولكن الحقيقة هي ٦١
ثم تأمل... ٦١
وتأمل... ٦١
فتأمل... ٦٢
تأملات في يوم بدر ٦٤
تأمل... ٦٤
تأمل... ٦٤
تأمل... ٦٥
تأمل... ٦٥

تأمل... ٦٦
تأمل... ٦٧
تأمل... ٦٧
تأملات في يوم الخندق ٦٩
تأمل... ٦٩
تأمل... ٦٩
تأمل... ٧٠
تأمل... ٧٠
تأمل... ٧١
تأمل... ٧٢
تأملات في يوم الحديبية ٧٣
تأمل... ٧٣
تأمل... ٧٤
تأمل... ٧٤
تأمل... ٧٥
تأمل... ٧٥
تأملات في حادثة الإفك ٧٧
تأمل... ٧٧
تأمل... ٧٧
تأمل... ٧٨
تأمل... ٧٨
تأمل... ٧٩

يا عبد الله... ..... ٧٩
تأملات في قصة الإمام أحمد بن حنبل ٨٠
تأمل ٨٠
تأملات في قصة خروج أهل السنة من دماج ٨٣
تأمل... ..... ٨٣
تأمل... ..... ٨٣
وتأمل... ..... ٨٤
فتأمل... ..... ٨٥
تأمل... ..... ٨٥
تأمل... ..... ٨٦
تأمل... ..... ٨٦
خاتمة ٨٨
أخي الكريم ٨٨
تأمل في نفسك... ..... ٨٩
تأمل في كل ذلك... ..... ٩٠
عبد الله... ..... ٩١
فهرس الموضوعات ..... **خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**٣